حماية المنشآت المعمارية من التخريب والهدم وصيانتها (منشآت صالح باي بالشرق الجزائري ١٧٧٢-١٧٩٢م) نموذجا

أ. طاهري عبد الحليم•

الملخص :

يعتبر موضوع حماية المنشآت المعمارية من التخريب والهدم وكذا صيانتها من أبرز المواضيع التي أهملها علماء الآثار في الوطن العربي ولما يكتسبه هذا الموضوع من أهمية اخترت منشآت صالح باي بالشرق الجزائري وهذا لاعتباره من أبرز النماذج في الجزائر في هذا المجال، فالجزائر تعرضت لفترة استعمارية فرنسية دامت ١٣٢سنة قام فيها المستعمر الفرنسي بجل الأعمال الشنيعة لتدمير مقومات الشعب الجزائري وذلك بتخريب كل ماله صلة بالهوية ومنها الآثار الغير رومانية ومن بينها الآثار العثمانية خاصة بمدينة قسنطنة لذا جاء اختياري لهذه الفترة بالتحديد، وكذا بالإضافة إلى المجهودات التي لعبتها وزارة الثقافة بالجزائر في مجال حماية وصيانة المعالم الأثرية والتاريخية من التلف والهدم .

الكلمات المفتاحية:

التخريب، الهدم، الصيانة، منشآت.

•أستاذ علم الآثار بجامعة الشهيد عباس لغرور خنشلة الجزائرtakiroi536@gmail.com

من المعروف أن المواد الأثرية والمباني التاريخية تحمل قيما فنية وجمالية وتاريخية وحضارية وقد تكون المادة الأثرية خالية من أي زخارف أو نقوش أو كتابات ولكنها تمثل قيمة علمية والهدف من ترميم الآثار هو كشف القيم الجمالية والفنية والتاريخية لهذه الآثار وكذا حمايتها طبقا لما أقره القانون وأوصت به المواثيق الدولية لحماية الآثار مثل ميثاق فينيسيا ١٩٦٦م .

إن الأبنية الأثرية المدروسة لها قيمة كبيرة فهي تمثل سجل لهذا المجتمع تستمد منه كل المعلومات ولا تتأثر القيمة بحالة الأثر فقد يكون المبنى كاملا أو عبارة عن بقايا حجرية .

إن عمليات الترميم في العالم ككل يجب أن تخضع لمجموعة من الشروط والمقاييس حتى تطبق العملية بدقة كبيرة و يكون الترميم نافع للمبنى وإذا لم تطبق هذه الشروط والمقاييس فإن الترميم سيكون ضار بكل تأكيد وهذا مالاحظه العالم في مجموعة كبيرة من عمليات الترميم في القرن ١٩ وكذا النصف الأول من القرن العشرين[١] .

إذا كان الغرب قد خطى خطوات عملاقة في هذا المجال حيث أصبح من الصعب حتى على المختصين في مجال الصيانة والترميم التفريق بين الأجزاء الجديدة والقديمة للدقة الكبيرة، فإن العالم العربي مازال بعيدا كل البعد عن التطور حتى أننا مازلنا في البدايات الأولى لهذا العلم وحتى إن أجرينا عمليات ترميم فإنها لاتكون بالشروط الخاصة في هذا المجال، فكم من عملية ترميم أجريت أدت إلى إتلاف ما تبقى من المبنى، وحتى عند الإستعانة بمكاتب أجنبية خاصة فإنها تأخذ مقابل ذلك مبالغ مالية كبيرة بالعملة الصعبة ولا تقوم بعملها على أحسن وجه .

أما فيما يخص الجزائر فإن علم الصيانة والترميم مازال هو الآخر بها مازال هو الآخر يعاني نقائص كبيرة جدا فقد أجريت مجموعة من العمليات أدت إلى إضرار كبير بالمباني ومثال ذلك جامع مدينة ميلة وكذا ضريح ماسينيسا * بالخروب، وهذا بالرغم من بعض المحاولات الجادة لتطوير هذا العلم وإنقاذ ما يمكن إنقاذه وكذا القوانين الصادرة في مجال حماية التراث المادي من التلف والتخريب ومعاقبة المتسببين في هذه الأشياء .

وفي هذا الموضوع سأتطرق إلى عينة من الجزائر ألا وهي بايك الشرق وبالتحديد في فترة أبرز باياتها ألا وهو صالح باي بن مصطفى .

---

[١]- عبد الله معاذ وآخرون، دليل إعداد مشروعات صيانة وترميم الآثار، وزارة الثقافة، هيئة الآثار المصرية، ١٩٩١، ص٧٠.

* ماسينيسا : هو من أبرز القادة الأمازيغ في الفترة الرومانية وهو قائد نوميديا الشرقية .

١- حياة صالح باي وندرجه في المناصب :

صالح بن مصطفى إزميرلي، ولد بمدينة أزمير [٢] غرب الأناضول سنة (١١٣٧ هـ / ١٧٢٥ م) فهو تركي الأصل .

تعتبر فترة حكم صالح باي من أهم الفترات في تاريخ بايلك الشرق بصفة عامة وفي تاريخ مدينة قسنطينة بصفة خاصة، كما تعتبر نقطة تحول في تاريخ المنطقة، حيث شهد البايلك فترة مزدهرة في جميع الميادين السياسية والاقتصادية والثقافية والعمرانية وهذا منذ توليه مقاليد السلطة سنة ١٧٧٢م .

لم تذكر المصادر الشيء الكثير عن نشأة صالح بن مصطفى، لكن كل ما يعرف عنه أنه ولد ونشأ في أسرة متوسطة الحال و هاجر إلى الجزائر، هذه الهجرة لم تكن بمحض الصدفة، بل أرغمه حادث مؤلم على الفرار من بيت أبيه وبلده وخوض مغامرات البحر، كان قد تسبب في مقتل أحد أقربائه خطأ فهاجر دون رجعة وعمره لم يتجاوز سن السادسة عشر سنة، لكن قبل هذا الفرار أثبت أنه رجل شهم حيث أرسل إلى أهل صاحبه المقتول بالخطأ تعويض قدر بستة عشر ألف فرنك ثم فر خوفا من الثأر المنتشر في تلك الفترة[٣] . وقد سجلت كل الروايات انه دخل الجزائر واستقر بها وقد بلغ السادسة عشر سنة من العمر ١٧٤١-١٧٤٢م [٤].

نزل بميناء الجزائر مقر الداي باشا الأيالة الجزائرية، واشتغل كمساعد في مقهى للإنكشارية، وقد سمح له هذا العمل رغم بساطته بالتعرف على أوضاع هذا البلد الذي وفد إليه حديثا، كما أن عمله في مقهى يرتاده أفراد من مختلف الطبقات سمح له أيضا بالتعرف على رجالات يعملون في الأوجاق[٥]، تمكن من التقرب منهم وبفضل مساعدتهم له، انخرط في التنظيم العسكري أي الجيش الإنكشاري .

تميز في منصبه الجديد بانضباطه، وامتثاله للأوامر التي كان يصدرها العسكر وقد أظهر شجاعته وقوته حيث كان يتقن جميع الفنون القتالية التي عرفت في عصره [٦].

---

[١]– آزمير: هي سميرنا القديمة مرفأ هام في تركيا على بحر إيجه، استولى عليها العثمانيون عام ١٤٢٢

[٢]- Charbonneau (A.) , « Inscriptions arabes de la province de constantine » , in Annuaire Archéologique de Constantin , 1856-1857 , p.116.

[4]- Vaysstes: l' histoire de Constantine de puis l'invation turque jusqu'à l'occupation de 1835-1837, l'arndet Paris , 1900 , p 333.

[٥]- الأوجاق : كلمة تركية ويقصد بها الدولة التركية في الجزائر

[6]- GAID (M.),Chronique de Beys de Constantine, O.P.U, Alger S.D , p 38.

ثم انخرط في الجيش (المليشيا التركية)[٧]، قبل أن يوجه إلى قسنطينة في حملة عسكرية لدعم الفرقة التركية المعسكرة بها في عهد الباي أزرق عينو[٨] .

نظرا لما أبداه الرجل من مهارة وقوة في تلك الحروب، فقد أثار انتباه أحمد القلي الذي أعجب به قبل هذه الفترة بكثير، وبتولي أحمد باي القلي سدة الحكم بالبايلك كان التغير الكلي في حياة صالح.

استمر مسار صالح بن مصطفى في اتجاه الصعود نحو المراتب العليا، نتيجة لاحتكاكه بالباي وقد ساعدته أيضا قوته العسكرية أثناء الحملات المختلفة ضد بايات تونس وكذا الحملات الموسمية للمحلة [٩] إلى أن استطاع تولي منصب زعيم الحراكتة بالأوراس عام ١٧٦٢ – ١٧٦٥ م [١٠].

كما عين خليفة للباي بين سنوات (١٧٦٥-١٧٧١م)، وبعد وفاة أحمد باي القلي ذكر للباشا اسم صالح خوجة وكان معروفا بخبرته بأحوال الرعية ومعرفته بالأمور كما هي، فهو الأعرف بولاية قسنطينة وعمالتها فوافق على ذلك في شعبان عام ١١٨٥هـ/١٧٧٢م فأعد القفطان ومكتوبا وأتى به إلى البلد وأحضر الآغة وكافة الديوان وعلماء البلد وخواصه وقرأ كتاب السيد الباشا [١١].

إن شخصية صالح باي شكلتها مجموعة من المؤثرات القبلية أي قبل دخوله إلى الجزائر، وكذا مؤثرات بعدية أي بعد التحاقه بأيالة الجزائر، أما التكوين الحقيقي له فكان بعد وصوله إلى بايلك الشرق، هذا التكوين وهذه النشأة أثرت فيما بعد في تفكير صالح باي بعد توليه لشؤون البايلك، بعد تنصيبه كباي عمل كل ما في وسعه لاستتاب الأمن والاستقرار في شتى المجالات كما عمل على تقوية نفوذه ومد أطراف البايلك إلى مناطق بعيدة، كل هذه الأمور أدت إلى تخوف كل المناطق من الباي وكذا إسكات المنتقدين والمعارضين .

---

[٧]- المليشا : هي الشرطة التي تتكون من الأتراك خاصة، وتكون على قسمين : مليشا منتظمة ومليشا غير منتظمة، وقد كان لها وزن في تعيين المسؤولين وعزلهم .

[٨]- زرق عينو : هو حسن باي، حكم المقاطعة بين (١٧٥٤ – ١٧٥٦ م)، تركي المولد برز أثناء الحملة على تونس وهو صهر بوحنك، كانت فترة حكمه قصيرة .

[٩]- المحلة أو الأمحال، جمع محلة وهو اسم يطلق على مجموعة كبيرة من العسكر، كانت تخرج مرتين كل سنة تحت إمرة الباي أو من ينوبه وذلك لجمع الجباية .

[١٠]- فاطمة الزهراء قشي، قسنطينة المدينة و المجتمع، ج٢، رسالة دكتوراه في التاريخ، جامعة قسنطينة ١٩٩٨، ص ٩٠ .

[١١]- محمد الطاهر بن أحمد النقاد، ذكر طرف ولاية المرحوم السيد صالح باي أميرا ببلد قسنطينة مخطوط بالمكتبة الوطنية بتونس رقم ٢٦٣، ص٢-٣.

لقد قتل صالح باي على يد حسين باي بأمر من حسن باشا في محرم ١٢٠٧هـ/٠١ سبتمبر ١٧٩٢م وقد سلمت جثته إلى أسرته فدفنته في مدرسة سيدي الكتاني [١٢].

وذكرى صالح باي لازالت قوية عالقة بأذهان الأهالي وهو بلا منازع أعظم الحكام الذين تعاقبوا أثناء الفترة التركية على رأس إدارة بايلك الشرق، كرجل حرب كان له منافسون، أما كإداري فلم يضاهه أحد وفي هذا الميدان بالذات أثبت تفوقه الحقيقي، على وقته وزمانه وعلى السكان الذين كانوا تحت سلطته .

٢- جغرافية البايلك :

يعتبر بايلك الشرق أوسع منطقة في الجزائر وأغناها من حيث الموارد الطبيعية وأكثرها سكانا، وعند إنشاء البايلك أصبحت حدوده تمتد شمالا من البحر إبتداءا من طبرقة شرق القالة إلى حدود مدينة بجاية، ومن الشرق الحدود التونسية إبتداءا من طبرقة التي تبدأ من طبرقة على البحر وتمتد إلى الجنوب عبر تبسة إلى غاية واحات وادي سوف.

ومن الغرب جبال البيبان وقرى بني منصور وسفوح جبال جرجرة الشرقية والجنوبية، إلى برج حمزة وقريتي سيدي هجرس وسيدي عيسى اللتين تفصلانه على بايلك التيطري في الجنوب الغربي. ومن الجنوب الصحراء الكبرى غير المأهولة جنوب واحات وادي سوف وتقرت وورقلة ومزاب [١٣].

أما من حيث مظهره التضاريسي فهو ملتقى سلسلتا جبال الأطلس:الشمالية التلية والجنوبية الصحراوية عند كتلة جبال الأوراس وليس فيه من الأحواض والسهول سوى حوض وادي الصومام والسهول العليا القسنطينية التي تمثل الجزء الشرقي من إقليم الهضاب العليا الجزائرية إلى جانب منبسطات تبسة وحوض وادي سوف ووادي ربيغ وسهول عنابة وسكيكدة.

جغرافية مدينة قسنطينة :

وقد أطلق عليها عدة تسميات انقسمت عبر التاريخ إلى قسمين الأولى سيرتا أو كيرطا أو قيرطه أو كيرتن أو كرطن وذلك في العهود التي تلت الملك ماسينيسا[١٤]، أما القسم الثاني من التسميات فأهمها (بلد الهوى، مصامرة سيبوس، قسنطينة)

---

[١٢]- مؤلف مجهول، ذكر طرف يسير يتعلق بأيام المرحوم السيد صالح باي الإزميرلي، الخزانة العامة بالرباط، مخطوط رقم (د.٧٠٩)، ص١٢-١٣.

[١٣]- محمد الصالح بن العنتري، فريدة منيسة في حال دخول الترك بلك قسنطينة واستيلائهم على أوطانها أو تاريخ قسنطينة، تقديم. يحيى بوعزيز، د.م.ج، الجزائر، ص ١٧ .

[١٤]- محمد الصغير غانم، معالم التواجد الفينيقي البوني في الجزائر، دار الهدى، عين مليلة الجزائر، ٢٠٠٣، ص٢٢٧.

وأكثر التسميات تداولا هي التسمية الأخيرة (قسنطينة) وقد سماها المغاربة في كتبهم التاريخية قسم طنية تبين على أن اسمها في العصور الماضية حصن طينة[١٥]، حيث نجدها عند جل المؤرخين والجغرافيين المسلمين، وقد تعددت التفسيرات حول كيفية كتابتها ونطقها [١٦] .

تتوسط المدينة إقليم شرق الجزائر، وهي واقعة خلف الأطلس التلي جنوب غرب عنابة، لقد كان لها امتداد واسع في العهد العثماني، فهي تمتد من البحر شمالا إلى ما وراء بسكرة ووادي سوف في حوض ريغ جنوبا ومن الحدود التونسية شرقا إلى ما وراء إقليم ونوغة وبرج حمزة وسفوح جرجرة غربا [١٧] .

– أما موقع المدينة فهو على شكل مدرج يرتفع في الشمال الغربي عند سفوح جبل المنصورة الذي يفصله عنها انهدام متعرج تشكله مياه وادي الرمال، هذا الوادي الذي يلتقي بواد بمرزوق الآتي من الجهة الشرقية في المكان المعروف بدار الأقواس (الحنايا القديمة) [١٨] .

وفي الشمال الشرقي للمدينة ينتصب جبل المنصورة في اتجاه جنوبي شرقي إلى شمالي غربي، ومع أن هذه الجبال جرداء من الأشجار إلا أنه يمكن استغلالها في الزراعة، وفي أعلى هذه الهضبة (هضبة المنصورة)، نجد بها نتوءان إحداها شرقي يشرف على المدينة يعرف بـــ (سيدي مبروك)، أما الثاني الواقع في الشمال الغربي لهضبة المنصورة فيحمل اسم (ضريح سيدي مسيد) .

تقع مدينة عنابة في الشرق الجزائري وبالتحديد في الجزء الساحلي الشرقي على بعد ٦٠٠كلم من الجزائر العاصمة، وغرب خليج المرجان المعروف باسم خليج بونة[١٩] الذي تلي مياهه شواطئها يحدها حاليا من الشرق مدينة الطارف ومن

---

[١٥]- سليمان الصيد، نفح الأزهار عما في قسنطينة من الأخبار، الجزائر، ط١، ١٩٨٤، ص٠٩.

[١٦]- أنظر كلا من : – ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، لبنان، ط٢ ١٩٩٥،ج٤، ص٣٤٩

– عماد الدين إسماعيل أبو الفدا، تقويم البلدان، تصحيح رونود والبارون ماك كوكين ديسلان، دار الطباعة السلطانية، باريس ١٨٤٠، ص١٣٨–١٣٩.

– أحمد بن علي القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، شرح وتعليق. نبيل خالد الخطيب دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط١ ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ج٥، ص١٠٥.

[١٧]- محمد الصالح بن العنتري، المصدر السابق، ص١٧.

[١٨]- ناصر الدين سعيدوني وصف مدينة قسنطينة حسب معلومات جديدة للقبطان هيبوليت١٨٣٢، عن مجلة "الأصالة"، وزارة الشؤون الدينية، مطبعة البعث، قسنطينة، عدد جوان – جويلية ١٩٧٩م / ١٣٩٩ هـ، ص ٨.

[19]- Derdour (H.), Annaba , Tome I , SNED . Alger , 1982, P11.

الغرب مدينة سكيكدة أما من الجنوب فتحدها مدينتي سوق أهراس وقالمة، ويمتد خليج بونة على ٢٣,٥ كلم عند المفرق.

من الناحية الجغرافية ينقسم إقليم ولاية عنابة إلى كتلة جبلية متراصة في الشمال تعرف بجبل إيدوغ والذي يصل في أعلى قمة منه (قمة بوزيزي) إلى ١٠٠٠ متر[٢٠] فهو عبارة عن حاجز طبيعي لعنابة ضد الرياح الشمالية وخاصة الغربية . ويشمل أقاليم بلديات سرايدي، وادي العنب، تريعات وشطايبي قليل السكان ويمتاز بغابات كثيفة للغاية وبساحل صخري شمالا، أما القسم الجنوبي للولاية فهو سهل ساحلي خصب يمتد بين جبل إيدوغ شمالا وجبال قالمة جنوباً وبه بحيرة مالحة كبيرة (بحيزة فزارة) في الغرب كما يخترقه وادي سيبوس شرقاً مع بعض التلال التي تشكل امتدادا لجبل إيدوغ بإقليم بلدية عنابة، البوني وسيدي عمار ويظهر تناقض صارخ في هذا الإقليم بين كثافة سكانية عالية جدا في قسم صغير يشمل مدينة عنابة (عاصمة الولاية) ومدن وأحياء ملاصقة لها كالبوني، بوخضرة، سيدي سالم (بلدية البوني) والحجار وسيدي عمار وبين المناطق الأخرى واسعة المساحة وقليلة السكان.

٣- نشاطاته في المجال العمراني :

لقد أولى صالح باي عناية خاصة لإعطاء مظهر جميل، لجعل قسنطينة في أجمل حلة، وأعاد لها مكانتها التي عرفتها في الماضي، حينما كانت عاصمة للنوميديين ومقرا مفضلا للحفصيين، وقام بتنظيم بناياتها .

شجع صالح باي المشاريع العمرانية في شتى المجالات (الدينية والمدنية والعسكرية) كتشييده لمركبين دينيين وهما مركب سيدي لكتاني(١٢٠٢هـ-١٧٨٧م) والذي يحتوي على جامع ومدرسة ومقبرة، وأقام بالقرب منها منازله الخاصة وبيوتا لحاشيته، منهم خدمه الإيطاليون، وجراحه الخاص النابولي الأصل، وتتصل بهذه المنازل بساتينه واصطبلاته وحمامه الخاص به، وقد أقام العديد من الدكاكين التي تحيط بسوق الجمعة (سوق العصر) .

وكذا مركب سيدي محمد الغراب حوالي(١٧٨٧م) والذي يحتوي على مسجد وضريح ومسكن وحمام، وهذه المركبات الدينية تعتبر الوحيدة المتبقية في مدينة قسنطينة وفي بايلك الشرق بصفة عامة، كما لم تذكر المصادر التاريخية تأسيس مثل هذا النوع من المنشآت العمرانية في مدينة قسنطينة .

[٢٠]- سعيد دحماني، هبون الملكية، الوكالة الوطنية للآثار وحماية المعالم والنصب التاريخية، الجزائر، ١٩٩١، ص ١١ .

هذا بالإضافة إلى تشييده لمدرسة سيدي لخضر المحاذية لجامع سيدي لخضر(١٢٠٣هـ -١٧٨٩م) والتي فقدت أجزاء كثيرة من معالمها الأصلية، كما شيد مسكنا له عرفت بدار صالح باي لقد بناها صالح باي سنة (١١٨٥-١٢٠٧هـ/١٧٧١-١٧٩٢م)، وهي تقع ضمن المركب الديني والتجاري الذي شيده صالح باي، وهي مطلة على جامع ومدرسة وضريح سيدي الكتاني من جهة وعلى سوق العصر من جهة أخرى، ثم تغيرت تسميتها إلى دار بن جلول . وكان من بين أهم المشاريع التي قام بها هو ترميمه لجسر القنطرة ١٢٠٦هـ / ١٧٩٢ م، وهو أحد أهم منجزاته، وكان يهدف من وراء هذا المشروع لتسهيل المواصلات في النواحي الشرقية للبايلك، وهو الجسر الذي وصفه بيوسنال حينما زار قسنطينة سنة١٧٢٥م:"في وسط المدينة نرى جسرا بديع الجمال، ذا ثلاثة صفوف من الأقواس بارتفاع٢٦٠ قدما ولكنه ضيق شيئا ما"[٢١].

وعندما قرر صالح باي إصلاح الجسر، جلب لذلك الغرض مائة عامل من الدول لأوروبية، واستعان بالمهندس الإسباني ماهون بالبليار يدعى دون بارتولوميو "Don Bartolonero" وقد صرف عليه مبالغ مالية طائلة[٢٢].

بل و حتى من ماله الخاص، وكلفه بمعاينته وتقرير ما يمكن عمله لإصلاحه ودعمه، وتم الاتفاق على استعمال المواد المحلية بدلا من المستجلبة التى تكلف نفقات باهظة، وشرع هذا المهندس في الإجراءات المطلوبة لذلك. وقام بإعادة بناء وترميم الجزء العلوي من الجسر والقوسين السفليين والأعمدة الثلاثة واستخدم أحجارا تعود إلى العهد الروماني، المتواجدة بكثرة بالقرب من حصن المنصورة[٢٣]. كما نجد إشارات لهذا الإنجاز في مخطوط الخزانة العامة بالرباط جاء فيها :" ... والحال أن جماعة النصارى البنايين الذين أستجلبهم لبناء القنطرة مشتغلون بالبناء حتى صعدوا به إلى قرب باب القنطرة فخرج إلى البرج وبنيت له قبة واستنفر الخدمة لرفع الصخور التي قطعها النصارى للبناء ..." [٢٤].

---

[21]- MORELEVE , Les Maures de Constantine , 1975 , p 72.

[22] - Vaysstes : OP . CIT . p 374.

أنظر : أبو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر منذ بداية الاحتلال، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم جامعة الدول العربية، مصر، ١٩٧٦، ١٦٨.

[٢٣]- كما تطرق بيونسال إلى عملية الترميم التي جلب لأجلها الحجارة من البليار لكن لم يصل منها إلا القليل شحنة واحدة)من ستورة. STORA نظرا لتكلفتها الباهضة، كما استعمل أحجار قوس(النصر والذي يعرف بقوس القولة.

– الحاج أحمد الشريف الزهار، المصدر السابق، ص٦٥.

[٢٤]- مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص٠٧.

كما ذكر ابن النقاد هذا العمل في قوله :"...وبنى قنطرة بديعة خارخ باب القنطرة أحد أبواب بلد قسنطينة.."[٢٥].

وكان صالح باي يهدف من وراء هذا المشروع لتسهيل المواصلات في النواحي الشرقية للبالك، كما كان يهدف إلى جلب المياه الصالحة للشرب من عين العرب الغزيرة، ليوفر على السكان جلب الماء من أسفل الوادي عبر "باب الجابية"[٢٦]، لكن المشروع لم يتم لأنه لم يشرع فيه إلا في شهر فيفري من سنة ١٧٩٢م . وبقي هذا الجسر معلقا، إلى أن تم هدمه من قبل السلطات الاستعمارية في ١٨مارس١٨٥٧م[٢٧].

لقد كان هذ الجسر من أهم الأسباب التي ساعدت الواشين والدساسين للإيقاع بينه وبين الداي وذلك بزعم أنه يريد الانشقاق على السلطة المركزية . فعزل صالح باي ثم قتل وتوقف العمل في الجسر إلى ما بعد.

كانت الأراضي البعيدة عن مقر الحكم كباب القنطرة وحي الشارع التي تمتاز بمنظر لا يعجب الناظرين خاصة ذوق الباي . فقد كانت هناك تجمعات سكانية لا تسر النظر حول المسجد وزاوية سفر وسيدي التلمساني فـــأوصى حينذاك الرسامين بإعطاء وجه جديد للمدينة، حيث بلغ عدد الجوامع التي بناها صالح باي وهي الكبرى: خمسة مساجد، وعدد المساجد الصغيرة كان يفوق السبعين[٢٨].

قام صالح باي بتعمير ناحية الشارع التي أقطعها لليهود ليبنوا فيها منازلهم ودكاكينهم وهي تقع في الطرف الشمالي للمدينة بين سوق الجمعة وباب القنطرة وكانت هذه الناحية مهجورة من قبل، وبهذه الطريقة سوى وضعية اليهود قي المنطقة حيث جمعهم هناك[٢٩] وبهذا تسهل على إدارة البايلك مراقبتهم، وأعاد النشاط برحبة الصوف، التي أصبحت مركزا تجاريا بعدما كانت شبه مهجورة، وأقام

---

[٢٥]- محمد الطاهر بن أحمد النقاد، المصدر السابق، ص١١.

[٢٦]- الحاج أحمد الشريف الزهار، المصدر السابق، ص٦٥ .

[٢٧]- عبد الرحمان الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج٣، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٥ ص٢٩٧.

[28]- LAKHDAR (GUABI) , The place of Sahara Bey in the Constantine . Constantine , 1988.p.351

[٢٩]- أنظر كلا من :

- Vaysstte s : OP . CIT . p 353.

- Charbonneau (A.) «Inscriptions Arabes de la Medrasa de Sidi L-Ahdar a Constantine», in Revue Africaine, 1858 , p322. - Mercier (E.) ,op.cit , p.438.

لليهود دكاكينهم وحوانيتهم بالشارع الرئيسي الذي كان يصل من باب الوادي لباب القنطرة مباشرة[٣٠].

– لقد ترتب عن إقامة هذه المؤسسات واختيار موقعها أن انتقل وسط المدينة ومركزها إلى سوق الجمعة حيث دار الباي الجديدة والجامع الأعظم الذي يصلي به وكذا المدرسة التي بناها بمحاذاة الجامع .

كما شيد خانا خارج البلد مشتملا على حوانيت لبيع الثياب وأن جميع من يأتي من بعيد يبيت فيه، كما شيد أهل حاشيته دورا إقتداء بسيدهم[٣١].

أما في مدينة عنابة فقد شيد صالح باي جامعا يعرف باسمه والذي مازال محافظا على معظم أجزائه، أما في مدينة سكيكدة فقد أنشأ مرسى سكيكدة بالإضافة إلى إعادة ترميمه لمرسى سطورة[٣٢].

هذا بالإضافة إلى منشآت أخرى اندثرت مع مرور الزمن وقضى معظمها مع الدخول الفرنسي لقسنطينة من زوايا ومساجد ومنازل وطرقات وتشييده لأحياء بأكملها (حي اليهود– حي سيدي الكتاني) وأسواق وساحات، حيث عرفت مدينة قسنطينة أقصى اتساع لها في عهد صالح بـــاي وتداخلت الأحياء وزاد اتســـــــاعها حتى

تجاوزت أسوار المدينة وهذا ما يدل على غنى البايلك في هذه الفترة وكذا حب صالح باي للعمارة والعمران والفنون .

٤- أهم المنشآت المتبقية وأبرز التجديدات التي طرأت عليها :

أما فيما يخص المنشآت المشيدة من طرف صالح باي والمتبقية للفترة الحالية والتي جزء منها تعرض لعمليات تلف وتهديم كبيرتين أما بعضها فمازال محافظ على سلامته، والمباني التي تعرضت للتلف بعض المؤسسات مستها عمليات ترميم وأخرى مازالت تعاني من التهميش حتى الفترة الحالية وسنبرزها فيما يلي بإعطاء نبذة عن المنشأة وكذا أبرز التغييرات أو التجديدات التي مستها :

---

[٣٠]- إلى ذلك الوقت كان اليهود متفرقين في كل الأحياء خاصة في جهة باب الجابية التي تقع جنوب غرب المدينة تحت ساحة باب الوادي، لقربها من المركز التجاري للمدينة، ثم خصص لهذه الطائفة حي بأكمله يعرف بحي الشارع.

[٣١]- محمد الطاهر ابن النقاد، المصدر السابق، ص١٠.

[٣٢]- محمد الصالح بن العنتري، المصدر السابق، ص٦٥.

أ-جامع سيدي الكتاني :

يقع جامع سيدي الكتاني في وسط الحي الشعبي المعروف بسوق العصر يحده من الشمالي مدرسة سيدي الكتاني ومن الجنوب دار بن جلول ومن الشرق سوق العصر أما من الغرب فتجاوره أحياء سكنية، وهو جزء من مركب سيدي الكتاني حيث يقول ابن النقاد في مخطوطه حول الجامع مايلي :" ...فبنى الشارع بعد أن كان مراحا وبنى وأقام به دورا وبنا جامعه المشهور المسمى بسيدي الكتاني بناء عجيبا ...وبه صومعة حسنة.."[٣٣].

من المعروف في تلك الفترة أن جل المنشآت المشيدة بجوار ضريح عالم أو ولي صالح فإنها تأخذ نفس التسمية، وهو نفس الشيء الذي طبق على هذا الجامع.

يرجع تأسيس هذا الجامع إلى سنة ١١٩٠هـ/١٧٧٦م وهذا حسب الكتابة التذكارية المثبتة في أعلى المدخل الرئيسي للجامع بالجهة الجنوبية وقد جاء فيها مايلي :

إن رمت تاريخه قل – سنة ١١٩٠– ذا مسجد للعبـــادة.

وقد بدأ في تشييد هذا الجامع قبل سنة ١١٨٨هـ/١٧٧٤م حيث جاء في إحدى الوقفيات أن صالح باي أوقف تسعة حوانيت على الجامع المذكور[٣٤]، أما تاريخ ١١٩٠هـ/١٧٧٦م هو تاريخ نهاية الأشغال .

– إن المتمعن في الجامع من الخارج يلاحظ مدى التغيير الكبير الذي مست هذه المؤسسة الدينية خاصة ما تعلق بالواجهتين الخارجيتين الشرقية والجنوبية اللتين جددتا بالكامل، فقد عرف الجامع تغييرات كبيرة مست أجزاء مختلفة منه ولكنها لم تمس الجوهر التخطيطي له، وقد كانت أولى هذه التغييرات على يد نابليون الثالث سنة ١٨٦١م حين زار مدينة قسنطينة وقد مست تلك التغييرات الواجهة الخارجية لجدار القبلة. كما ذكر مارسي أن هذا الجامع تعرض إلى تغييرات كبيرة من طرف الفرنسيين لكنه لم يذكر نوع هذه التغيرات[٣٥].

أما داخل الجامع فقد جددت الملاحق المتواجدة أسفل بيت الصلاة والميضأة التي تقع في الطابق العلوي والباب الموجود في الركن الغربي الجنوبي والخاص بدخول النساء والسقف الذي يعلو الصحن وكذا السلم الصاعد إلى السدة في بيت الصلاة وكذا البلاطات الخزفية في السلم الصاعد إلى الطابق العلوي .

---

[٣٣]- محمد الطاهر بن أحمد النقاد، المصدر السابق، ص٠٧.

[٣٤]- دفتر صالح باي للأوقاف، مخطوط بأرشيف قسنطينة، ص ٧٣.

[35]-Mericier(E.) ,Histoire de Constantine, édition braham , Constantine , 1903, P439.

ب - مدرسة سيدي الكتاني :

تقع مدرسة سيدي الكتاني في الجزء الثاني للمدينة العتيقة (قسنطينة) أي أعلاها قريبا من جسر سيدي مسيد المعلق والمؤدي إلى المستشفى الجامعي (ابن باديس) وكذا بمحاذاة السوق الشعبي المسمى بسوق العصر الذي سمي بعد الاستقلال بساحة بوهالي السعيد، يحدها من الشمال دار الإمام حاليا ومن الجنوب جامع سيدي الكتاني وبهذا فهي جزء من مركب سيدي الكتاني .

واشتهرت منذ تأسيسها باسم المدرسة الكتانية نسبة إلى ولي صالح اسمه الكتاني دفن بتلك البقعة من أهل القرن ١٢هـ/١٨م، وذلك لما جرت عليه العادة في ذلك الوقت على تسميت المساجد والمدارس والزوايا، حيث تحمل أسماء رجال اشتهروا بالعلم تبركا ورغبة في الإقتداء بهم مثل مدرسة سيدي لخضر ومدرسة عمر الوزان ومداس أخرى[٣٦]. وكانت المدرسة تلقن الطلبة التعليم في مختلف الفنون والعلوم (الفقه – الحساب – النحو والفلك..)[٣٧].

أسس صالح باي مدرسة سيدي الكتاني سنة (١١٨٩هـ /١٧٧٥م) بالجانب الشرقي من الجامع المعروف بسيدي الكتاني[٣٨].

لقد لعبت هذه المدرسة منذ تأسيسها دورا كبيرا في تثقيف العامة وتكوين جيل جديد من المثقفين القادرين على إدارة الشؤون الداخلية للبايلك، وقد عمد صالح باي بهذه المدرسة لمحاربة الزوايا والتصوف والطرقية بطريقة غير مباشرة . لقد بقيت محافظة على دورها حتى بعد الدخول الفرنسي للجزائر حيث ضمت هذه المدرسة إلى أملاك الدولة بعد الاحتلال الفرنسي لقسنطينة صباح يوم الأربعاء(١٤-٧-١٢٥٣هـ/١٣-١٠-١٨٣٧م)[٣٩].

إن المتمعن في المدرسة من الداخل يلاحظ أن المدرسة جددت تقريبا بالكامل باستثناء بعض العناصر كـ المحراب بكل زخارفه المتنوعة (الصورة ٠٢)، وكذا الكتابة الموضوعة في رواق المدخل الرئيسي وكذا الحشوة الخشبية التي أعيد تركيبها في الباب الجديد بقاعة التدريس (الصورة ٠٣) بالإضافة إلى الأعمدة

---

[٣٦]- محمد المهدي شعيب، المرجع السابق، ص٣٨٥.

[٣٧]- رشيد بورويبة، قسنطينة، سلسلة الفن والثقافة، وزارة الإعلام، الشركة الوطنية للنشلا والتوزيع، الجزائر، جوان ١٩٧٨، ص١٢٦.

[٣٨]- أمقران السحنوني، المعهد الكتاني بقسنطينة قرنان في خدمة الثقافة العربية الإسلامية (١٧٨٧-١٩٨٧م)، عن "مجلة التراث"، تصدرها جمعية التاريخ شركة الشهاب، باتنة، الجزائر، ١٩٨٩، ص١٢٨.

[٣٩]- أمقران السحنوني، المعهد الكتاني بقسنطينة، عن "مجلة التراث"، ص١٢٩.

الرخامية المتواجدة في الصحن، أما بقية العناصر المعمارية الأخرى فهي مجددة بالكامل ومن الصعب إثبات كيف كانت المدرسة الكتانية في الفترة العثمانية قبل التجديدات التي استحدثت عليها في الفترة الاستعمارية الفرنسية، وحسب د. دحدوح فإن المدرسة الكتانية كانت تتكون من طابق واحد وذلك استنادا إلى القانون الذي وضعه صالح باي حول سير المدرسة والذي جاء فيه أنها تحتوي على خمس غرف وقاعة للدرس تستخدم في نفس الوقت للصلاة وميضأة وحجرة صغيرة، وكذا باستناده إلى اللوحة الفنية التي وضعها Sourdeval للمدرسة عند زيارته للمدينة في سنة ١٨٥٧م .أما الرأي الثاني فقد تزعمه فايست (Vayssettes) في مجلة قسنطينة (R.C) أن المدرسة كانت تتكون من تسعة غرف أربعة منها لسكنى الطلبة وهذا يرجح فكرة أن المدرسة منذ نشأتها كانت تتكون من طابقين (أرضي وأول)[٤٠] . ولكن لا يمكننا معرفة التجديدات قبل معرفة الأصل الحقيقي لمخطط المدرسة .

كما أشار محمد المهدي شعيب إلى وجود كتابة اندثرت كانت على وجهها الموالي للشارع، هذه الكتابة العربية تدل على إصلاحات أدخلها نابليون الثالث على المدرسة والمقبرة حين زار قسنطينة في عام ١٢٨١هـ/١٨٦٤م للمرة الثانية[٤١]. للأسف لم نتوصل إلى وثائق تبرز هذه التغييرات أو التجديدات التي قام بها هذا الحاكم الفرنسي ومهما يكن من أمر فمن الممكن أن هذه التغييرات كانت مؤثرة على طابعها المعماري والزخرفي .

كما أضيفت لها الحديقة التي نصل عن طريقها إلى الباب الرئيسي بالإضافة إلى البوابة الحديدية الخارجية المضفية إلى سوق العصر .

لقد ساهمت الدراسة التي قامت بها إحدى مؤسسات الهندسة المعمارية التابعة لولاية قسنطينة سنة ١٩٨٩م إلى بعث مشروع ترميم هذا المعلم الأثري والتاريخي في نفس الوقت، وبالرغم من تأخر المشروع ١٢سنة كاملة إلا أنه استطاع إعادة بعث هذا المعلم من جديد، كانت انطلاقة أشغال الترميم في المدرسة في بداية سنة ٢٠٠١م

على أساس إنهائها في فترة لاتتجاوز سنة، وقد وضعت لها ميزانية قدرت بثلاثة ملايين دينار جزائري، إلا أن واقع الترميم وهشاشة المبنى أخرت العملية إلى سنة أخرى ووصلت ميزانيتها إلى حوالي ملياري سنتيم، وانتهت فيها الأشغال نهائيا في أفريل ٢٠٠٣م.

[40]-Vayssettes (E .) , Histoire De Constantine , (R .C) , P. 357 .

[٤١] - محمد المهدي شعيب، المرجع السابق، ص٣٨٦.

لم تغير هذه الترميمات من الجوهر الرئيسي للمدرسة ألا وهو تشكيلها من طابقين بالإضافة إلى قاعة للتدريس في الطابق الأرضي وصحن يليها مباشرة (المخطط ٠١).

ج- المقبرة العائلية لصالح باي : [٤٢]

تقع المقبرة العائلية لصالح باي ضمن نطاق المدرسة أو داخل المدرسة في القسم الشمالي منها وهي تحتل مساحة صغيرة داخل المدرسة .

أسست المقبرة العائلية لصالح باي في نفس الوقت الذي بنيت فيه المدرسة ١١٩٠هـ/١٧٧٦م وقد ذكر هذا التاريخ في الكتابة التأسيسية التي ذكرناها سابقا .

وعلى غرار ما سبق نجد بمركب سيدي الكتاني مقبرة نصل إليها من باب بالجدار الجنوبي للمدرسة، وهذه المقبرة هي الشيء الوحيد الذي مازال على أصالته الأولى (لم تحدث به تغييرات كبيرة)، المقبرة تتواجد في مستوى أعلى من أرضية الصحن ونصعد إليها بثلاث درجات توصلنا إلى باب مصنوع من الحديد ذو مصراعين وهي بوابة أصلية يوجد بها هلال وصفيحة من النحاس مكتوب عليها (مقبرة صالح باي) ومساحة غرفة الأضرحة ٣٠م٢.

وأول ما نجده عند دخولنا من البوابة أربعة عشر قبرا للقضاة والمعلمين الذين كانوا بها وكذا قبر صالح باي وعائلته وهذه القبور نجد تسعة منها ٩ بلوحات شاهدية و٥مجهولة، والملفت للنظر هو وجود بعض القبور مغطاة بالرخام الأبيض، عكس قبور أخرى مغطاة بالخشب، أما النوع الآخر فهي المغطاة بالبلاطات الخزفية .

- لقد حافظت المقبرة العائلية لصالح باي على معظم أجزائها المعمارية والفنية، ولكن بالرغم من ذلك فقد غيرت بعض أجزائها حيث فقد اللوحة الكتابية المجاورة للنافذة المطلة على رواق المدرسة كما جددت القبة الضريحية، إزالة أعمدة القبة واستبدالها بدعامات وكذا اندثار الكتابة التي كانت موجودة في الجدار الشمالي الشرقي للمقبرة من الداخل (الصورة ٠١)، حيث جدد بالكامل كما جددت بعض تجميعات البلاطات الخزفية التي سقطت من أماكنها كما تم إعادة ترميم بعض الأجزاء من الشريط الكتابي الذي يلف بالمقبرة بسبب تعرضه للهشاشة التي سببتها الرطوبة حيث أفقد هذا التلف بعض الكلمات التي لم نستطع قراءتها.

[٤٢]- هي إحدى متطلبات المجتمع لدفن موتاهم، وتعتبر من العناصر الضرورية لأي عمران بشري كما أنها من أقدم القضايا المرتبطة بالمجتمع التي واجهها الإنسان ماعدا في بعض الحضارات التي تقوم بحرق جثث الموتى وبعثرتها في الماء كالهنود، كان بناء المقبرة في الإسلام عاملا مرتبطا بالعقيدة له ثوابه في الآخرة مثل باقي الأعمال ذات الفائدة العامة.

وبالرغم من هذه الترميمات الأخيرة إلا أن المقبرة تعرضت للتصدع خاصة سقف الغرفة الجنائزية الصغيرة التي تحتوي على قبرين (بنت وزوجة صالح باي)، الذي سقط بالكامل منذ عدة أشهر فقط، الشيء الذي أدى إلى تلف كبير في البلاطات الخزفية التي تغطي قبر عائشة زوجة صالح باي، لذالك نطالب السلطات المعنية بترميم هذا الجزء قبل أن يعم التلف كامل المقبرة.

د- مركب سيدي محمد الغراب :

يقع المركب الديني لسيدي محمد الغراب في نواحي قسنطينة في قرية قريبة من المدينة تبعد عنها بحوالي ٠٦ كلم كانت هذه القرية تعرف في الأصل بالغراب وهو الاسم الذي لا يزال عامة الناس يعرفونها بها، إلا أنه تم إطلاق تسمية ثانية عليها وهي "صالح باي"، يقع المركب بالقرب من جامع القرية إلى الشرق من الطريق الرئيسي للمدينة، وهي تحتل موقع منحدر الأرضية ارتفاعه مابين ١٥٤٩-١٥٥٥م فوق سطح البحر، وهذه القرية تقع في الشمال الغربي لمدينة قسنطينة يتم الوصول إليها عبر منفذ أساسي يربطها بها.

هدمت معظم مكوناته خاصة في فترة التسعينات من القرن الماضي، ويتكون هذا المركب الديني من مسجد وضريح ومنزل وحمام، وبذلك فهو مركب بكل معنى الكلمة، وللأسف لم يتلقى هذا المركب العناية اللازمة من حيث الدراسة والترميم .

يعود أصل تسمية هذا الضريح بالغراب إلى الشيخ محمد الزواوي الحنصالي الذي اغتيل في مكان تأسيس المركب وبذلك سمي باسمه أما تسمية الغراب فتعود إلى الأسطورة القائلة بتحول جثة هذا الولي الصالح إلى غراب .

يعتبر مركب محمد الغراب من أهم العمائر الدينية في عاصمة الشرق الجزائري رغم الإهمال وقلة الدراسات والأبحاث عنها، إلا أن تاريخ تأسيسها لايزال غير معروف لعدم وجود لوحة تأسيسية تدل على ذلك[٤٣].

لقد دارت التخمينات أنها تأسست ما بعد ١٧٨٧م وذلك فيما تبقى من حكم صالح باي[٤٤].

– لقد طرأت على المركب الديني لسيدي محمد الغراب إضافات وتغيرات متعددة لكنها لم تمس بالمخطط العام فالمركب حافظ على معظم أجزائه المعمارية، أما الزيادات التي تبدوا ظاهرة للعيان فنجدها خاصة في المسكن الذي غير تقسيمه الداخلي، وأضيفت له بعض الزيادات من أبواب ونوافذ وبعض الجدران، أما الحمام

[٤٣]- محمد الصالح ابن العنتري،المصدر السابق، ص٨٢-٨٣.

[44] - Derdour (H .) , opcit, p.143.

فمن الخارج فقد جدد بصفة كلية، والمسجد لم نستطع تحديد الزيادات التي أضيفت له بسبب الخراب الذي لحق به . أما الضريح فقد حافظ على أصالته بالرغم من مرور الزمن بإستثناء القبور الحديثة التي وضعت داخل الضريح، كما يمكننا ذكر تغير البوابة الأصلية للمركب والتي كانت في الجهة الجنوبية الشرقية والتي سدت بواسطة الإسمنت وفتحت بوابة جديدة في الجهة الجنوبية الغربية (الصورة ٠٧) .

هـ- مدرسة جامع سيدي لخضر :

تقع مدرسة سيدي لخضر في رحبة الصوف أو ما يسمى بحي الجزارين أو قديد صالح رقم ١٦٥، وبذلك فالمدرسة تقع في وسط المدينة أو القصبة القديمة، وهذه المدرسة تنفتح على الساباط الذي يربط بين نهج سيدي لخضر ونهج بن صغير عبد الوهاب المفتوح على رحبة الصوف .

اشتهرت المدرسة منذ نشأتها باسم مدرسة جامع سيدي لخضر نسبة إلى الشيخ سيدي لخضر الذي كان أول عالم في المسجد المجاور للمدرسة فسميت باسمه [٤٥].

أسس صالح باي مدرسة سيدي لخضر سنة ١١٩٣هـ/١٧٧٩م، ويستشف هذا من الكتابة التي كانت تزين قاعة الدرس والتي انمحت مؤخرا ولم يعد لها وجود وقد قيد هذه الكتابة شاربونو وقال بأنها كانت في شكل شريط مقاساته (٣٢,٧٢مx١٥سم) . كما ذكرها رشيد بورويبة بشيء من الفوارق البسيطة .

– إن الزائر لمدرسة سيدي لخضر يدرك مباشرة الإضافات التي ألحقت بالعناصر الأصلية لأنها ظاهرة للعيان ومن السهل التعرف عليها فقد اقتطع من الصحن الرواق الشمالي ليستغل كمطبخ وجزء من قاعة الدس استغلت كغرفة كما هدم المحراب الذي كان موجود في هذه القاعة وأزيلت الكتابة التأسيسية والتي من حسن الحظ أنها حفظت لنا في الكتب، كما أضيفت أبواب ونوافذ جديدة وتم استحداث السقف الداخلي (الصورة ٠٤) .

أما بالنسبة للمخطط العام للمدرسة فإنه لم يتغير كثير وذلك عكس ماحدث لمدرسة سيدي الكتاني (المخطط ٠٣).

و- دار بن جلول :

تقع دار بن جلول[٤٦]. في حي القصبة إلى الجانب الغربي من جامع ومدرسة سيدي الكتاني تطل على سوق العصر، وهي تطل على سوق العصر من الناحية الشمالية.

---

[٤٥]- رشيد بورويبة، المرجع السابق، ص١٢٦.

[٤٦]- أصل هذه العائلة من المغرب استوطن أبناؤها مدينة قسنطينة منذ القرن السادس عشر، تداولوا على الوظائف والخطط المخزنية فمنهم القاضي والعدل في عهد صالح باي وبعده. أنظر:

لقد أخذت هذه الدار تسمية دار صالح باي في أول الأمر ثم تغيرت التسمية بعد ذلك لتأخذ اسم دار بن جلول والحقيقة أنه لاتوجد معلومات تاريخية قد تحدثت عن سر هذا التغير .

لقد تم بناؤها في عهد حكم صالح باي خلال نفس الفترة التي بنا فيها الجامع والمدرسة[٤٧].

– لقد تعرضت الدار إلى تغييرات كبيرة خاصة في عناصرها المعمارية، فقد أضيفت لها بعض العناصر والزيادات غيرت كثيرا في أصالتها الأولى خاصة فيما يتعلق بالواجهات فقد تغيرت كثيرا في الفترة الاستعمارية، بالإضافة إلى الصحن الذي أزيلت منه النافورة الرخامية واستبدلت بعض الأعمدة الرخامية بأخرى من الإسمنت، أما الأروقة فقد فقدت الكثير من رونقها، والغرف تغيرت معالمها الأولى أما الأبواب فقد استبدلت معظمها بأخرى خشبية مشابهة للأصلية أو بأبواب حديدية، أما الجانب الزخرفي فقد حفظ معظمه من التلف وأبرز الأشياء التي بقيت شاهدة على أصالة هذا المبنى هي البلاطات الخزفية كما توجد أجزاء أخرى تعرضت للتلف بفعل العوامل المختلفة (الصورة ٠٦).

ي- جامع صالح باي بعنابة :

يقع الجامع في قلب مدينة عنابة وبالضبط في الناحية الشرقية من مساحة العرض العسكري بوسط مدينة عنابة والمعروفة بحارة سيدي شريط (سابقا) ساحة ١٩ أوت ١٩٥٦م حاليا.

لقد سمي بجامع الباي نسبة لمؤسسه صالح باي بن مصطفى الذي أسسه وزاوج فيه بين المذهبين المالكي والحنفي، وسبب تأسيس هذا الجمع يرجع إلى الصراع الذي دار في مدينة عنابة بين المالكية والأحناف .

وقد حدد تاريخ التأسيس بإحصاء الحروف التي تتركب منها جملة "بالخير برك جامع" التي وجدت في أإحدى واجهات الجامع عبارة عن أبيات شعرية، وهذا حسب الطريقة المغربية أو المشرقية[٤٨].

والمجموع هو ١٢٠٦هـ الموافق لـ ١٨ أوت ١٧٩٢م، وهذه الفترة تسبق قتل صالح باي بأيام قليلة، أما بالنسبة لوثيقة الوقف المؤرخة بسنة ١١٨٥هـ الموافق لسنة ١٧٨١م فإنها توكد عزم صالح باي بناء هذا الجامع قبل هذه الفترة بكثير . لقد

– فاطمة الزهراء قشي، قسنطينة المدينة والمجتمع، المرجع السابق، ص ١٢٠.

٤٧- زهيرة حمدوش، البلاطات الخزفية بمدينة قسنطينة خلال العهد العثماني، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في الأثار الإسلامية معهد الآثار، جامعة الجزائر، ٢٠٠٨-٢٠٠٩ .

[48]- Paier (AL.)La Mosqueè de Bone , in Revu Africaine , N°34-1 , o.p.u , Alger 1985 , p.264.

ذكر ابن النقاد هذا الجامع في مخطوطه حيث وصفه كما يلي :"وبنى جامعا ببونه بناء متقنا "[٤٩].

– لقد بنى صالح باي الجامع بطراز خاص وهو الطراز التركي المغربي، حيث مزج بين العمارتين التركية والمغربية، وهذا بعدما نشب نزاع بين أصحاب المذهب الحنفي وأصحاب المذهب المالكي[٥٠].

وعلى هذا أقام مئذنة ذات طراز مغربي مربعة الشكل ومئذنة ذات طراز تركي أناضولي وهي تعد أول مئذنة مستديرة في الجزائر .

وبالرغم من هذا الخليط المعماري وعدم التناسق في الهندسة والبناء فإن مظهر الجامع كان جميلا ومما زاد في أناقته هو إضافة منارة ثالثة وثبتت بها ساعة كبيرة.

وبهذا الإنجاز الفريد من نوعه التقت فيه رغبة المالكية بالأحناف وفي عام ١٧٩٦م جاء الباي مصطفى الوزناجي فأزال عنه مظاهر العمارة المغربية ولم يترك إلا الطابع التركي .

وأمام هذا الشطط والتجاوز خضع المالكيون للأمر الواقع وعلى مرأى منهم أزيلت المنارة ذات الطراز المغربي[٥١] ولم يبقى منها إلا القاعدة .

وفي سنة ١٢٦٩هـ–١٨٥٣م أضيفت له واجهة جديدة تتمثل في الرواق الطويل الذي يشكل الواجهة الرئيسية للجامع . وقد بقي على المذهب الحنفي حتى سنة ١٨٣٨م .

مخطط الجاع طرأت عليه تغييرات مختلفة أبرزها التغيير الأخير الذي مس أجزاء مختلفة من المنشأة (المخطط ٠٢)

وفي الختام يجب الإشارة إلى أن دراستنا حول موضوع (حماية المنشآت المعمارية من التخريب والهدم وصيانتها منشآت صالح باي بالشرق الجزائري نموذجا) شملت معظم الجوانب التاريخية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعمرانية في فترة صالح باي، إلا أنه لا تزال بعض الأمور غامضة تحتاج إلى مزيد من البحث والتمحيص .

ومهما يكن فإن التيارين الفنين العثماني والمحلي تعايشا معا وامتزجا في كثير من الأحيان واختلطا في الأعمال الفنية والمعمارية، لدرجة أننا نعثر على الطرازين معا

[٤٩]- محمد الطاهر ابن النقاد، المصدر السابق، ص١٠.

[50]- Derdour (H.),opcit , p.155.

[51]- Derdour (H.),opcit , p.155.

في مبنى واحد كمسجد صالح باي بعنابة والذي يعتبر عينة فريدة من نوعها في العالم الإسلامي ككل، لأنه يعبر عن التزاوج الحقيقي بين العمارتين الجزائرية والعثمانية وذلك لاحتوائه على مئذنتين واحدة على الطراز المغربي والثانية على الطراز العثماني أي قلمية الشكل حيث أنشأهما صالح باي بعد فض النزاع الذي وقع بين المذهبين المالكي الذي يمثل السكان المحليين والحنفي والذي يمثل الوافدين من تركيا، وكتعبير منه على التلاحم بين العنصرين المحلي والتركي أضاف أشياء أخرى للجامع تدل على هذا التلاحم بين العنصرين كالبلاطات الخزفية وكذا الزخارف الكتابية المتنوعة، بالإضافة إلى عينات في معالم أخرى شيدها صالح باي حيث نجد هذا التزاوج في لوحة فنية واحدة موجودة في جامع سيدي الكتاني، حيث يمكن للعين المجردة أحيانا أن تنمط فيها بين ما هو وارد من تركيا وما هو محلي في العناصر المعمارية والزخرفية وأحيانا أخرى تختلط تلك العناصر لدرجة يصعب معها التمييز بينها كالمواضيع الزخرفية .

كما يمكننا إبراز مجموعة من النقاط تتعلق بصالح باي ومنشآته وأعماله المختلفة نذكرها فيما يلي :

– إن فكرة إنشاء مؤسسات دينية وثقافية وتعليمية لم تكن وليدة الصدفة بالنسبة لصالح باي فحبه للعمارة والفنون وتأثره بالعمارة يعود ربما لفترة صباه وذلك لأنه قضى تسعة عشر عاما في مدن تركيا مشاهدا ومتأثرا بعمارتها وزخارفها، لذلك أنشأ مركبات دينية شبيهة بما هو موجود في مدينة إسطنبول، فالفرق واضح بينه وبن بقية البايات الذين حكموا المدينة في مجال البناء والتعمير .

– لقد تميز صالح باي عن بقية بايات قسنطينة بحبه للعمارة والفنون، وبالرغم من الاختلافات بين المؤرخين حول شخصيته إلا أنه خلف لنا إرثا معماريا وفنيا ساعد المؤرخين والأثريين على دراسة تاريخ المنطقة .

– عمل صالح باي على تنويع منشآته المعمارية فلم يكتفي بالمنشآت الثقافية والدينية فقط بل عمل على تقوية دفاعات المدينة وزيادة تحصينها، كما شيد عدة منشآت في الجانب الاقتصادي، لكن للأسف الشديد لم تصلنا سوى المؤسسات الدينية والثقافية فقط .

– لقد تعرضت منشآت صالح باي بمرور الزمن وبفعل العوامل المختلفة (طبيعية وبشرية) إلى تلف وتهديم أجزاء متعددة من هذه المنشآت كما ساهم عامل الاستعمار الفرنسي بالتحديد في تحول أجزاء مختلفة من هذه المنشآت من طابعها الأصلي الإسلامي المغربي العثماني إلى منشآت شبيهة بالعمارة الأوربية الفرنسية كما حدث في مدرسة سيدي الكتاني .

– لقد تهتم السلطات الجزائرية في ٢٥ سنة الأولى بعد الاستقلال بهذه المنشآت لكن بعد ذلك نجد محاولات مختلفة لترميم هذه المعالم الأثرية وإنقاذ ما يمكن إنقاذه .

–إن أبرز محاولات الترميم تمثلت في ترميم كامل لمدرسة سيدي الكتاني وإلحاقها بدار الإمام المجاورة لها كما رممت بعض الأجزاء في مسجد سيدي الكتاني ومسجد الباي بعنابة .

– بالرغم من هذه المحاولات الجادة لترميم هذه المعالم إلا أننا نجد معالم أخرى مهددة تهديدا حقيقيا كمركب سيدي محمد الغراب وكذا مدرسة سيدي الأخضر بالإضافة إلى بعض الأجزاء من دار صالح باي المجاورة لمسجده بقلب مدينة قسنطنة .

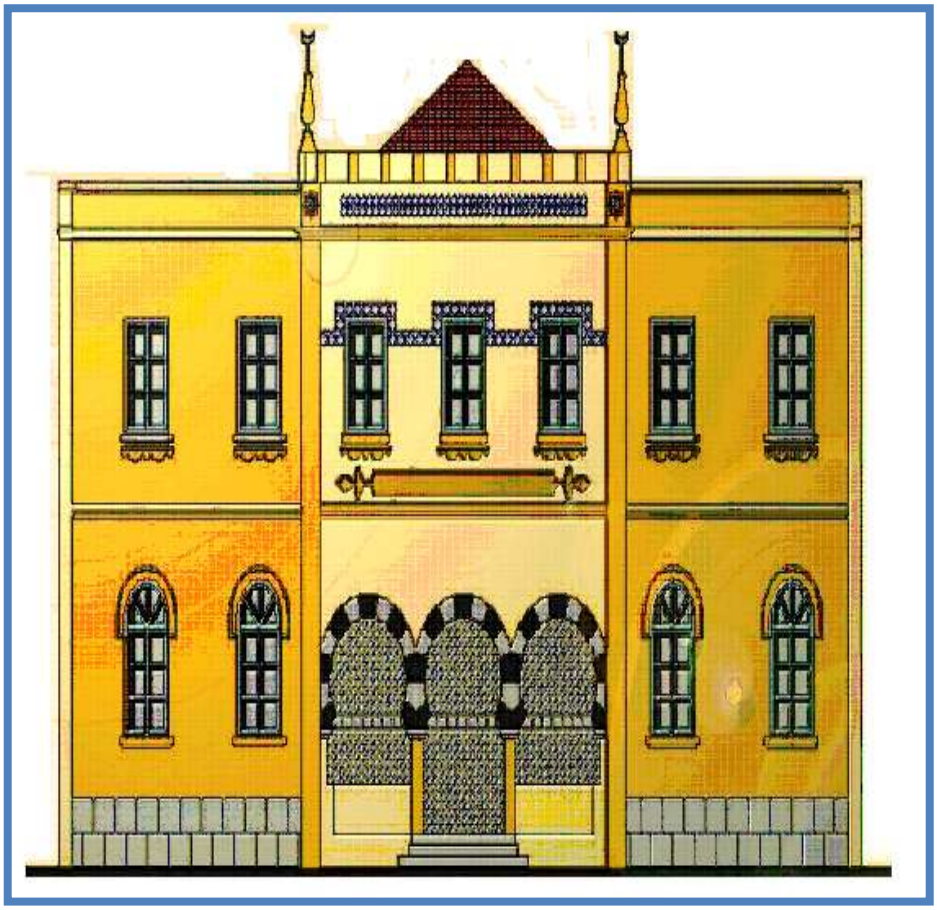

مخطط ـ ١ ـ واجهة مدرسة سيدي الكتاني

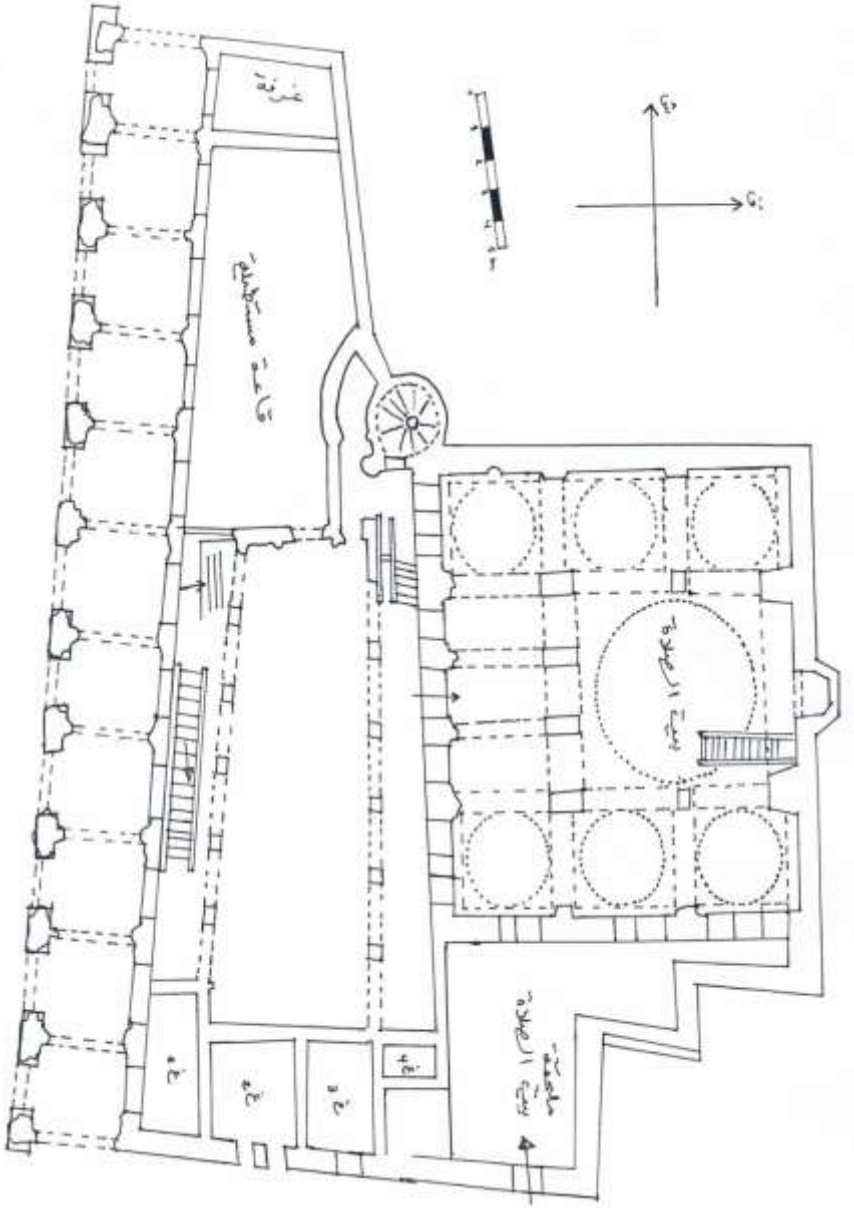

مخطط -٢- جامع صالح باي بعنابة بعد الزيادات

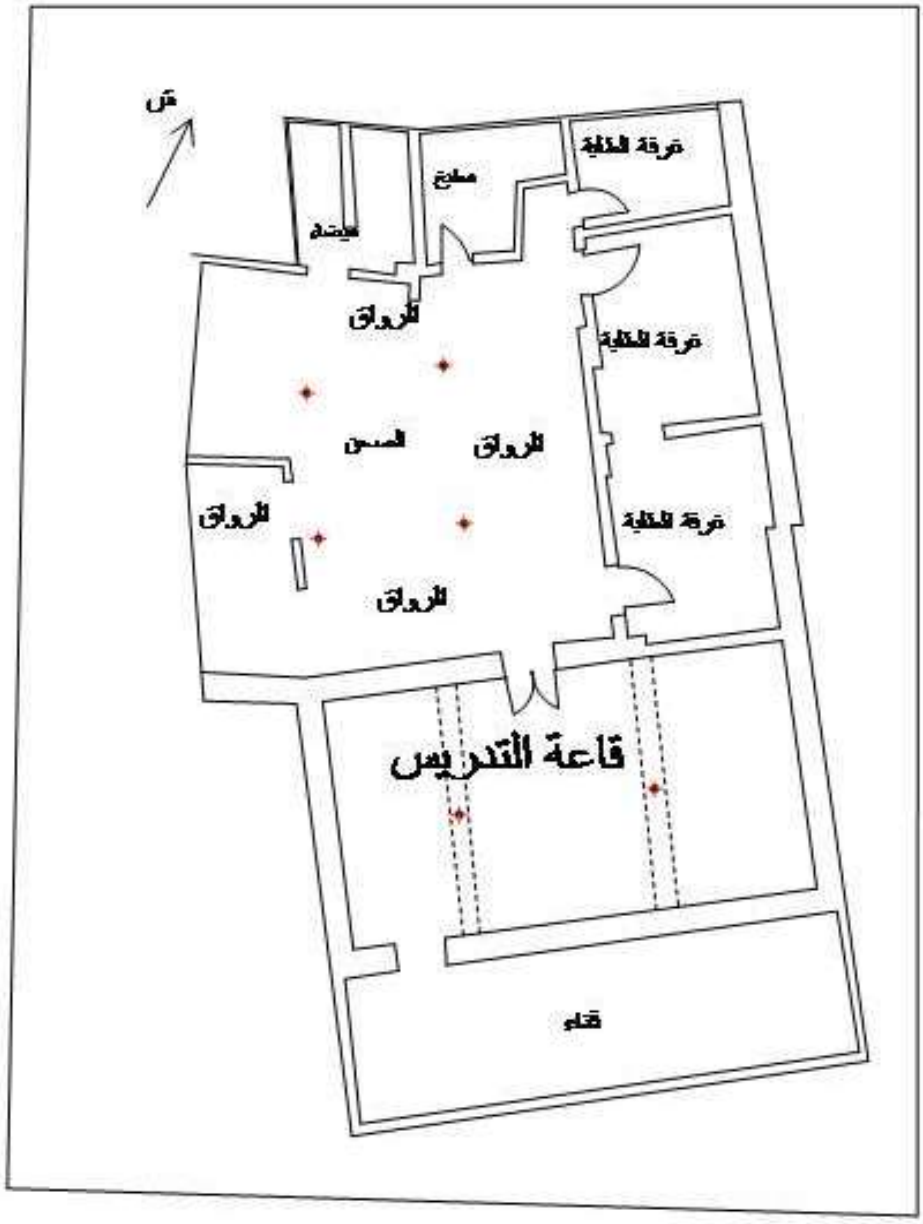

مخطط -٣- مدرسة سيدي لخضر

ملاحظة : كل المخططات من إنجاز الباحث

الصورة -١- مدرسة سيدي الكتاني عن أرسفان

الصورة -٢- محراب مدرسة سيدي الكتاني

الصورة -٣- بوابة قاعة التدريس

الصورة -٤- أعمدة مدرسة سيدي الأخضر

الصورة -٥- بعض أمثلة الضرر الذي لحق بمدسة سيدي الأخضر

الصورة -٦- التلف الذي لحق بجزء من دار صالح باي

الصورة -٧- الترميم الضار لمركب سيدي محمد الغراب التدريس

ملاحظة : كل الصور من إلتقاط الباحث

the protection of architectural establishments from devastation and destruction and their maintenance (establishments of Salah Bay In Eastern Algeria 1772-1792 AD) as a model.

Dr.Tahri abdelhalim

Abstract :

The protection of architectural installations from sabotage and demolition is considered as well as the maintenance of the main topics neglected by archaeologists in the Arab world and when acquired by the subject of the importance of the chosen Salah Bey facilities Middle Algerian This is considered the most prominent models in Algeria in this area, Algeria is exposed to the colonial French lasted 132 years the where French colonists venerate heinous to destroy elements of the Algerian people business, so sabotaging all his money related to identity, including third-party effects Roman including private Ottoman monuments in Ksentnh so was optional for this period in particular, as well as the addition to the efforts played by the Ministry of culture of Algeria in the field of the protection and maintenance of monuments and historical damage and demolition.

Key words:

Sabotage, Demolition Maintenance, Facilities